عبد الملك بن مروان والشعر

— ٣ —

حسن تمثله به

لئن صح لنا أن نتخذ ما تقدم لعبد الملك من جودة نقده للشعر دليلا واضحاً على صائب نظره ونامى ذوقه انه لأصح عندنا أن نتخذ ما سيأتى من حسن تمثله به وجميل استخدامه اياه دليلا أوضح على أنه قد درس الشعر دراسة خالطت منه لحمه ودمه وامتزجت عنده بالنفس والروح فلقد كان يتمثل فى الحادثة إثر الحادثة بالبيت أو البيتين أو الأبيات فكأن ذلك من صنع شاعر مجيد قد راقب الحادثة حتى أحاط بها خبرا ثم عمد الى القول فيها وأجاد . وانه لعسير على من عرف مقدرته فى هذا التمثل أن يجد تعبيراً موجزاً ملماً يفهم القارئ مبلغ ما وصل اليه عبد الملك فى هـذا ويكشف له القناع عما عسى أن يستنبط من تمثله كميزة له فى هذا الباب لهذا لم نر أمامنا من طريق للتعبير سوى أن نجزئ القول تجزئة ونسوق الحديث شيئاً فشيئاً.

أولا — عهدنا بالخطب والكتب أن تكون نثراً لا شعراً وأن تأديتها بعيدة عن استخدام الشعر فيها أفسح للخطيب والكاتب وأعون لهما على حسن الأجادة وبالغ التأثير ولكن ذلك العهد حال مع عبد الملك فى خطبه وكتبه فقد كان لا يخليهما غالباً من أبيات يتمثل بها فتكون أكشف لمراده وأغنى له عن أن يطيل فى الحديث شأن المثل السائر

اذا استخدمه الانسان فى الكلام والى القارئ فى كل نوع مثلين :

١ — لما تم له النصر على مصعب بن الزبير خطب الناس بالنخيلة وهى موضع بالبادية على مقربة من الكوفة فقال : أيها الناس دعوا الأهواء المضلة والآراء المشتتة ولا تكلفونا أعمال المهاجرين وأنتم لا تعلمون بها فلقد جاريتمونا الى السيف فرأيتم كيف صنع الله بكم ولا أعرفنكم بعد الموعظة تزدادون جراءة فأنى لا أزداد بعدها إلا عقوبة وما مثلى ومثلكم الا كما قال أبو قيس بن الاسلت

من يصل نارى بلا ذنب ولاترة ... يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة ... كيلا ألام على نهى واعذار
فأن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلفون خزيا ظاهر العار
لتتركن أحاديثا وملعبة ... عند المقيم وعند المدلج السارى
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه ... عندى وانى لطلاب لأوتار
أقيم عوجته ان كان ذا عوج ... كما يقوم قدح النبعة البارى

٢ — ولما قدم حاجاً سنة خمس وسبعين بعد أن قتل عبد الله بن الزبير واجتمع الناس عليه بعامين جلس على المنبر بالمدينة فشتم أهلها ووبخهم ثم قال : انى والله يا أهل المدينة قد بلوتكم فوجدتكم تنفسون فى القليل وتحسدون على الكثير وما جدت لكم مثلا الا ما قال مخنثكم وأخوكم الاحوص

وكم نزلت بى من خطوب مهمة ... خذلتم عليها ثم لم أتخشع
فأدبر عن شرها لم أبل بها ... ولم أدعكم فى كربها المتطلع

فقام اليه نوفل بن مساحق وهو ماذكره بعد التمثل لحسنه فى باب المحاورة والاقناع قام فقال يا أمير المؤمنين أقررنا بالذنب وطلبنا المعذرة فعد بحلمك فذلك ما يشبهنا منك ويشبهك منا فقد قال من ذكرت من بعد بيتيه الأولين :

وانى لمستأن ومنتظر بكم ... وان لم تقولوا فى الملمات دع دع
أؤمل منكم أن تروا غير رأيكم ... وشيكا وكيما تنزعوا خير منزع

٣ — أتاه من عبد الرحمن بن الأشعث أول خروجه عليه كتاب فيه سطور أربعة يقول فى ثلاثة منها :

سائل مجاور جرم هل جنيت لها ... ضربا يزيل بين الجيرة الخلط
وهل سموت بجرار له لجب ... جم الصواهل بين الجم والفرط
وهل تركت نساء الحى ضاحية ... فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط

ويقول فى الرابع :

قتل الملوك وصار تحت لوائه ... شجر الغرا وعراعر الأقوام

فكتب اليه عبد الملك يقول :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه ... حفاظا وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر بينى وبينهم ... ستحملهم منى على مركب وعر
وإنى وإياهم كمن نبه القطا ... ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غدا ... فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

٤ — وكان مما كتب به الى عبد الله بن الزبير قبيل قتله اياه يتوعده

ويتهدده قول العباس بن مرداس

انى لعند الحرب تحمل شكتى الى الروع جرداء السبالة ضامر

ثانيًا — لا يعدم القارئ أن يجد شجاعة عبد الملك وهمته تبدو واضحة ظاهرة فى ثنايا ما تقدم له من خطب وكتب غير أن ذلك لا يصل الى ما كان عنده من شجاعة وبطولة وشهامة وعزيمة مكنته مع بعد نظره وواسع حيلته من التغلب على مناوئيه والخارجين عليه وان شئت فقل على الدولة جمعاء فقد كانت كلها عليه لا له حتى ذوى العصبية من رهطه وعشيرته لأن الملك كان فى آل أبى سفيان ولشد ما عز عليهم أن يأخذه مروان وبنوه وإن فى المثلين الآتيين لغناء وكفاية فى التدليل على تلك الشجاعة

١ — كان عبد الملك مقداماً فى الحرب يسترخص النفس عند الروع وكان عند كل لقاء يتمثل قول شبيب بن البرصاء فى هذا ويعجب به

دعانى حصن للفرار فساءنى مواطن ان تثنى على فاشتما
فقلت لحصن نح نفسك انما يذود الفتى عن حوضه أن يهدما
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
سيكفيك أطراف الأسنة فارس اذا ريع نادى بالجوار وبالحمى
اذا المرء لم يغش المكاره اوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تجذما

٢ — لما استفحل أمر مصعب بن الزبير بالعراق وعز على جند عبد الملك التغلب عليه أراد الخروج اليه بنفسه فلاذت به عاتكة بنت يزيد بن معاوية وهى احدى نسائه وأم ابنه يزيد وقالت يا أمير المؤمنين

لا تخرج السنة لحرب مصعب فان آل الزبير ذكروا خروجك وابعث اليه الجيوش وبكت وبكى جواريها معها فجلس وقال قاتل الله ابن ابى جمعة يعنى كثير عزة فأين قوله

اذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها

نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاها قطينها

والله لكأنه يرانى ويراك يا عاتكة ثم نهض فخرج فكان فى خرجته قتل مصعب .

ومما يذكر هنا عن صدق فراسته وحدسه أنه لما قام فخرج نظر الى كثير فى ناحية عسكره يسير مطرقا فدعا به وقال لا أعلم ما أسكتك وألقى عليك بثك فان أخبرتك عنه أتصدقنى قال نعم قال قل وحق ابى تراب لتصدقنى وكان كثير علويا مغاليا وأبو تراب احدى كنى على رحمه الله فقال والله لأصدقنك قال لا أو تحلف به فحلف به فقال عبد الملك تقول رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه القاتل والمقتول فى النار فما معنى سيرى مع أحدهما الى الآخر ولا آمن سهما عائرا لعله أن يصيبنى فيقتلنى فأكون معهما قال والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت قال فارجع من قريب وأمر له بجائزة .

ثالثا — قد كان لعبد الملك فراسة صادقة تتبعها سياسة حسنة منها ما ذيلنا به الحكاية السابقة وقد كان فى تمثله بالشعر ما هو أدل على تلك الفراسة وأجلى لها وإلى القارئ من هذا طرفا .

١ — قال أبو الحسن المدائنى أصبح عبد الملك يوما فى غداة باردة

فتمثل قول الأخطل

اذا اصطبح الفتى منها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لا شك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

ثم قال كأنى أنظر اليه الساعة محال الازرار مستقبل الشمس فى حانوت من حوانيت دمشق ثم بعث رجلا يطلبه فوجده كما ذكره وكان الأخطل مغرما بالشراب ولا سبيل لعبد الملك الى نهيه لأنه كان نصرانياً ولدين الاسلام مع أهل الذمة من حسن المعاملة ما هو معروف مشهور .

٢ — لما بعث اليه الحجاج برأس عبد الرحمن بن الأشعث كان الرسول عرار بن عمرو بن شاس فلما أدخل اليه بالرأس وبكتاب الحجاج جعل يقرأ الكتاب وكلما شك فى شىء سأل عرارا . عنه فأخبره شافيا فعجب عبد الملك من بيانه وفصاحته مع سواده فقال متمثلا :

وان عرارا ان يكن غير واضح فانى أحب الجون ذا المنكب العمم

فضحك عرار فقال له عبد الملك م ضحكت ويلك قال أتعرف يا أمير المؤمنين عرارا الذى قيل فيه هذا الشعر قال لا قال فأنا والله هو فضحك عبد الملك وقال حظ وافق كلمة ثم أحسن جائزته وسرحه. هذا وكان لعرار فى صغره زوج أب تنهره وتؤالمه فنهاها أبوه عنه وقال :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم
وان عراراً ان يكن غير واضح فانى أحب الجون ذا المنكب العمم

رابعاً — وقد يحوم حول الأذهان من بعيد أن إعراض عبد الملك

عن عاتكة فيما تقدم اذا دل من جهة على شجاعة وشهامة فقد يدل من أخرى على جفاء وقسوة فدفعاً لذلك رأيت أن آتى بتمثل له يرى ما كان عنده من رقة شعور ولطف معاملة وينعكس من ناحية أخرى فيزيد تلك الشجاعة ويرفع منها

١ — حدث بينه وبين عاتكة نبوة جفته من أجلها فشق ذلك عليه ووسط من خاصته من يزيل هذا منها فلما طلع عليه الرسول برضاها وكان قد أعياه ذلك اندفع متمثلا بقول كثير

وانى لأرعى قومها من جلالها وان أظهروا غشاً نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قوى لكنت لقومها صديقاً ولم أحمل على قومها حقدى

ولما تقدم من تمثله فى عاتكة وعرار فاكهة نسوقها للغريض مع يزيد بن عبد الملك ذلك أنه قدم مكة قبل أن يستخلف وبعث الى الغريض سراً ليغنيه فغناه ببيتى كثير فأشار اليه مواليه أن اسكت لما كان من تمثل عبد الملك بهما فى عاتكة أم يزيد ففطن يزيد وقال دعوه يغننى بما يريد وكان الغريض قد فطن أيضاً فغناه ببيتى عمرو بن عرار ليعقب ما أخذ عليه بما كان من متمثلات عبد الملك فى الأمور العظام كمعذرة واسترضاء .

خامساً — فى تمثل عبد الملك بالشعر ما يدل فوق ما تقدم جلى ما كان عنده من صراحة فى القول

١ — لحق به عروة بن الزبير بعد قتله لأخويه عبد الله ومصعب فأقام عنده فكان اذا دخل عليه منفرداً أكرمه واذا دخل عليه وعنده أهل الشام

استخف به فقال له عروة يوماً يا أمير المؤمنين بئس المزور أنت تكرم ضيفك فى الخلا وتهينه فى الملا فقال لله در زهير حيث يقول :

فقرى فى بلادك ان قوما متى يدعوا بلادهم يهونوا

فاستأذن فى الرجوع الى المدينة فقضى حوائجه وأذن له وحسناً فعل مع عروة فما كان لموتور فى أخوين كعبد الله ومصعب أن يقف دون الثأر بله الاقامة عند الواتر

٢ — وكان عبد الملك كلما نظر الى أخيه معاوية وكان ضعيفا يتمثل بهذين البيتين .

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلت الطبائع والظروف
وأمك حين تنسب أم صدق ولكن ابنها طبع سخيف

والبيتان للمغيرة بن حبناء فى أخيه صخر قال الأصمعى لم يقل أحد فى تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول المغيرة بن حبناء لأخيه صخر وذكر البيتين .

سادساً — كان عبد الملك يقدس الشعر ويعمل به فيأبى أن يخالف مدحا قيل فيه أو أن يرضى لغيره ما ليس له بأهل فمما يروى من النوع الأول وهو ينبئ عن مبلغ المروءة من نفسه وتأصل العفة فيه الحكاية .

١ — لما وصل اليه الرسول بكتاب ابن الأشعث استأذن فى وقت كان يستعرض فيه جارية بعث بها اليه والى اليمن لم ير قط مثلها فلما قرأ الكتاب نحاها وأعرض عنها مع كثير شغفه بها فكلمته فى ذلك

وقالت ما يمنعك يا أمير المؤمنين فقال يمنعنى ما قاله فينا الأخطل لأنى ان خرجت منه كنت ألأم العرب وأنشد

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

فما اليك سبيل أو يحكم الله بينى وبين عدو الرحمن بن الأشعث ثم لم يقربها حتى قتل عبد الرحمن .

ومن النوع الثانى وقد تقدم منه فى المقال الماضى شىء ولكن بغير التمثل ما يأتى :

١ — قال مرة لأبى العباس الأعمى انشدنى مديحك مصعبا فاستعفاه فقال يا أمير المؤمنين انما رثيته بذلك لأنه كان صديقى وقد علمت أن هواى أموى قال صدقت ولكن انشدنى ما قلته فأنشده

يرحم الله مصعباً فلقد مات كريماً ورام أمراً جسيما

فقال عبد الملك أجل انه مات كريماً ثم تمثل

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس الا كل حر معمم

٢ — ودخل عليه نصيب بعد وفاة أخيه عبد العزيز وكان من خواصه ومادحيه فقال له أنشدنى مارثيت به أخى فأنشده

عرفت وجربت الأمور فما أرى كماض تلاه الغابر المتأخر

ولكن أهل الفضل من أهل نعمتى يمرون أسلافا أمامى وأغبر

فان أبكه أعذر وإن أغلب الأسى بصبر فمثلى عند ما اشتد يصبر

فلما سمع بيته الأخير أعاده وقال له ويلك أنا أحق بهذه الصفة فى أخى منك فهلا وصفتنى بها وجعل يبكى

٣ — ورب من يقول إنه استعان بنصيب فى هذا ولم يجد له كفيئا فنقول قد تمثل فيه بالأبيات وجعل يرددها ويبكى أيضا

يا أيها المتمنى أن يكون فتى ... مثل ابن ليلى لقد خلى لك السبلا
ان ترحل العيس كى تسعى مساعيه ... يشفق عليك وتعمل دون ما عملا
لو سرت فى الناس أقصاهم وأقربهم ... فى شقة الأرض حتى تحسر الإبلا
تبغى فتى فوق ظهر الأرض ما وجدوا ... مثل الذى غيبوا فى بطنها رجلا
اعدد ثلاث خصال قد عرفن له ... هل سب من أحد أوسب أو بخلا

سابعاً — ولقد كان اذا لم يجد من الشعر ما يغنى الغناء الكافى عند التمثل قرض شعراً وتمثل به .

١ — لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بنى أمية خرج ابن عبدل معهم الى الشام وكان ممن يدخل على عبد الملك ويسمر عنده فقال لعبد الملك ليلة .

ياليت شعرى وليت ربما نفعت ... هل أبصرن بنى العوام قد شملوا
بالذل والأسر والتشريد انهم ... على البرية حتف حيثما نزلوا
أم هل أراك بأكناف العراق وقد ... ذلت لعزك أقوام وقد نكلوا

فقال عبد الملك الشعر الآتى وقيل إنه لغيره وتمثل به وعلى كليهما فلم نخرج به عن الموضوع قال :

ان يمكن الله من قيس ومن جدس ... ومن جذام ويقتل صاحب الحرم
نضرب جماجم أقوام على حنق ... ضربا ينكل عنا غابر الأمم

وقد أمكنه الله من ذلك وشد أواصر ملكه بتلك الشدة التى

نذرها وأعاد لبنى أمية ملكا فى بنى مروان بعد أن ذعذعت به صروف الليالى من آل أبى سفيان

ثامناً — لم تعد تلك الشدة معه شد الملك وتأييده ولم تخرج به بعد تلك الدائرة التى كان ير الشدة فيها عدلا الى شىء يعد عليه ظلماً وعدوانا وهذا أيضا نستدل عليه من تمثله

١ — فكان اذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه ينشده

انا اذا مالت دواعى الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم نقضى بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقا ولا نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

ثم يجتهد فى الحق بين الخصمين .

تاسعاً — وان آخر ما تمثل به من الشعر فى علته التى مات فيها ما يأتى برواية الشعبى قال :

١ — دخلت على عبد الملك بن مروان فى علته التى مات فيها فقلت كيف تجدك يا أمير المؤمنين فقال أصبحت كما قال عمر بن قئه .

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عنى عنان لجامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام
فلو أنها نبل اذاً لاتقيتها ولكنما أرمى بغير سهام
وأهلكنى تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

فقلت لست كذلك يا أمير المؤمنين وهذا كما قال لبيد

قامت تشكى الى الموت مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فعاش حتى بلغ التسعين فقال :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عن منكبىّ ردائيا

فعاش والله حتى بلغ مائة وعشرين فقال :

وغنيت سبتا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

ويروى دهرا قبل مجرى داحس فعاش حتى بلغ مائة وار بعين سنة فقال

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذى الناس كيف لبيد

فتبسم عبد الملك وقال لقد قويت من نفسى بقولك يا عامر وانى لأجد خفا وما بى من بأس وأمر لى بصلة وقال لى اجلس يا شعبى فحدثنى ما بينك وبين الليل فجلست فحدثته حتى أمسيت وخرجت من عنده فما أصبحت حتى سمعت الواعية فى داره .

عاشراً — تلك جملة من تمثلات عبد الملك بالشعر الذى لم يكن يقف استخدامه له عند حد وإنه مهما شعر القارىء فيما تقدم بالمزيد فانا نعترف بالعجز عن إتمام تصوير مقدرته فى هذا الموضوع فاذا وقفنا عند هذا الحد فى ذاكم المبحث فليس وقوفنا الا تجنباً للأطالة فيه ومحبة لسرعة الانتقال الى معرض آخر من علاقته بالشعر يكون موعدنا به العدد الآتى ان شاء الله

السباعى بيومى
بالمدرسة الثانوية الملكية بمصر